

# حَبْلُ الْاِغْتِصَامِ وَوُجُوبُ الْخِلَافَةِ فِي دِينِ الْاِسْلَامِ

لِلسَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيبِ الْعُبَيْدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

(١٨٨٠-١٩٦٣م)

ضَبَطَهُ عَلَى اَصْلِهِ وَحَقَّقَهُ: عَزُّ الدِّينِ

هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْبَدْرَانِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

# حَبْلُ الْاِعْتِصَامِ وَوُجُوبُ الْخِلَافَةِ فِي دِينِ الْاِسْلَامِ

تَأْلِيفُ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيبِ الْعَبِيدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

وَهِيَ رِسَالَةٌ دِينِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ اِجْتِمَاعِيَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ عَرَضُهَا الْوَحِيدُ تَوْحِيدُ

الْكَلِمَةِ مِنْ اَهْلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ رَمَّا<sup>(١)</sup> لِلصَّدْعِ وَلَمَّا لِلشَّاتِ؛ اِحْيَاءاً

لِمَجْدِ الْقُرْآنِ وَمَنْ اُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، خِدْمَةً لِلدِّينِ الْحَنِيفِ

وَأَبْنَانِهِ، تَضَمَّنَ لِلْمُسْلِمِينَ طَيْبَ الْحَيَاةِ فِي النَّشْأَتَيْنِ

إِذَا اسْتَمْسَكُوا بِعُرْوَتَيْهَا الْوُثْقَى وَسَارُوا

عَلَى طَرِيقَتِهَا الْمُتْلَى وَاعْتَصَمُوا

بِحَبْلِ اللَّهِ الْمَتِينِ

بِحَبْلِ اللَّهِ اِعْتَصِمُوا جَمِيعاً      وَلَا تَتَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأَنَامِ

فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُكُمْ إِذَا مَا      تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ الْاِعْتِصَامِ

<sup>١</sup> الرَّمُّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ الَّذِي فَسَدَ بَعْضُهُ؛ مِنْ نَحْوِ حَبْلِ يَلِي فَتَرُمُّهُ أَوْ دَارَ تَرُمُّ شَأْنَهَا مَرْمَةً. وَرُمُّ الْأَمْرِ إِصْلَاحُهُ بَعْدَ اِتْتِشَارِهِ، رَمَمْتُ الشَّيْءَ أَرُمُّهُ وَأَرْمُهُ أَصْلَحْتُهُ. وَالرَّمُّ إِصْلَاحُ مَا فَسَدَ وَكَلَّمُ

مَا تَفَرَّقَ. لِسَانُ الْعَرَبِ لِابْنِ مَنْظُورٍ: (رَمَمَ) ج ٥ ص ٣٢٢-٣٢٣.

# فَهْرَسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

الصفحة	الموضوع
٥	فهرس المحتويات
٦	مقدمة التحقيق
٨	مقدمة المصنف
١١	القطب الأول: في سبب تأليف هذه الرسالة
١٣	القطب الثاني: في الاتحاد الإسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال
١٧	الفصل الأول: في منشأ الخلافة الإسلامية
١٧	التمهيد الأول: في أن أنبياء الله خلفاؤه في الأرض
٢١	التمهيد الثاني: في إثبات نبوة مُحَمَّد ﷺ
٣٠	التمهيد الثالث: في تحقيق معنى النسخ
٣٣	التمهيد الرابع: في أنه ﷺ خاتم الأنبياء، وأن في شريعته الكفاءة لذلك
٤١	تمحيص ومناقشة حساب
٤٦	المقصود في أن الخلافة الإسلامية خلف النبوة
٤٧	في وجوب الخلافة
٥٠	إيضاح
٥٢	تكملة في وجوب طاعة أولي الأمر
٥٥	الفصل الثاني: في أن الخلافة الإسلامية قائمة بالدولة العثمانية
٥٩	الفصل الثالث: في أن الخلافة الإسلامية إذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الإمكان قيام أخرى مكانها
٦٥	الخاتمة: في أن الإنكليز أشد الأمم عداوة للإسلام والمسلمين
٧٦	محكمة التاريخ الكبرى والإنكليز والمسلمون
٨٢	نهاية
٨٣	آخر كلمة
٩١	ختامها مسك
٩٢	السيرة الذاتية للمصنف

# الصدق العظيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَهُوَ حَسْبِي وَكَفَى  
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى  
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

## مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(٢)</sup>.

ربما الشيء الأكثرُ ظهوراً يكون أشدَّ خفاءً، لا سيما إذا قَدِمَ عليه الزمنُ وتوارثه الجيل بعد الجيل على العادة والتلقي بالسجية، فكيف إذا كان الأمرُ مدبراً ومخططاً له؟! فلا بدَّ والحالُ هذه أن نسألَ خبيراً، ليدلَّ الجيلَ اللاحقَ على خفايا الحاضرِ من قصصِ الجيلِ السابقِ ليعتبرَ أولوا الأبصارِ.

ومما لا شكَّ فيه، أن الحيوية تتجددُ بالذاكرة والملاحة على مختلف المستويات الفكرية والخبرانية، بما يؤدي إلى تنمية فكرة الجيل الحاضر بجزرة الجيل الماضي، قال الله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبيراً﴾<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا شدَّ انتباهي اطلاعي لأول مرَّة على الشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي رَحِمَهُ اللهُ بوصفه فقيهاً وسياسياً، إذ كان المشهورُ عنه أنه شاعر أديبٌ وناقد أريبٌ، فاطلعتُ على كتابه (حَبْلِ الْعِصْمِمْ وَوُجُوبُ الْخِلَافَةِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ) وكان فيه فضلاً عن الفكرة ومعرفة الحكم الشرعي، الإحساسُ المرفه والشعورُ الصادق واللهاجة الصريحة الواضحة، للتعبيرِ المشفق عن حالِ الأمة ولأجلها.

وأرادَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ بحبلِ الاعتصام: الخلافة الجامعة لأمر المسلمين في قضايا الدنيا والدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾<sup>(٤)</sup> حيث يعتقد أهل العلم من المفسرين وسائر علماء المسلمين أنَّ اعتصامَ الجماعة يقومُ بمعنيين لا ينفصلُ أحدهما من الآخر؛ بل يكتمل وجود أحدهما بالآخر، وإلا اعتور المسلمين النقصانُ في دينهم. وهما الجماعة بالألفة معتصمين بالعهد على حبلِ الله الذي هو التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾: (الذي بمعنى العهد - البيعة للأمر

<sup>١</sup> ق/ ٣٧.

<sup>٢</sup> يوسف/ ١١١.

<sup>٣</sup> الفرقان/ ٥٩.

<sup>٤</sup> آل عمران/ ١٠٣.

العام - عن ابن عباس، وقال ابن مسعود: حبلُ الله: القرآنُ. ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ. وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك) ونقل من مسند بقي بن مخلد عن ابن مسعود: (الجماعة). والمراد العهدُ بالطاعة على اعتقاد الكتاب والسنة والعمل بهما. ورحمَ اللهُ ابن المبارك حيث يقول:

إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللَّهِ  
مِنْهُ بَعْرُوتُهُ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَ

قال القرطبي: (فأوجبَ اللهُ تعالى علينا التمسُّكُ بكتابه وسُنَّة نبيِّه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً. وذلك سببُ اتفاق الكلمة وانتظام الشُّتات الذي يتمُّ به مصالح الدنيا والدين عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتائبين هذا معنى الآية على التمام)<sup>(١)</sup>.

ولمَّا نظرتُ ووجدتُ أن الكتابَ قد طبع طبعَةً قديمةً سنة (١٩١٦م) ولم تتجدَّدْ حيوية هذا الكتابِ على ما فيه من تعبيرٍ مُشرقٍ ينظرُ آفاقَ المستقبل، ويلجُ ظلمات الغيب السياسيِّ للتاريخ المعاصرِ للأمة الإسلامية، والتحذير النابه لها. وجدتُ أنه من الضروري أن تتجدَّدْ حيوية الكتاب بقاء يقرؤه المثقف المعاصر، ليتلمَّحَ خبرة الماضي في الحاضر.

ووجدتُ أن من الأمانة أن أحافظ على نصِّ الكتاب كما هو في طبعته المذكورة، لا كما فعلَ (محمَّد عزَّت نصر اللهُ) في طبعه الكتاب الثانية، التي صدرت عن مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة - بيروت. إذ لم يحافظ على الكتاب كما هو، فضلاً عن اتجاه الشيخ الفاضل محمَّد حبيب في رؤيته للعالم الإسلامي. وفي هذا تفصيل لا يسعه المقام، وجزى اللهُ خيراً محمَّد عزَّت على ما اجتهد فيه على الرغم من ملاحظتنا عليه.

وعلى هذا رأيتُ أن أحافظ على الكتاب ضابطاً على نُسخته الأصلية المطبوعة في حياة المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، وأن أجعلَ عليها توضيحاتٍ وتعليقاتٍ يحتاجها المثقف المعاصر، بما لا يخلُّ بالإحساس الذي أُراده المصنِّف أن يكون في القارئ والمتلقِّي، وكذا الشعور الوقاد الذي يتدفق من قلب المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ إلى قلب القارئ الصادق حفظه اللهُ، بجسر عباراته المشوِّقة والصادقة.

ثم عملتُ على تخريج الأحاديث التي وردت في سياق كلام المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، وعزو الآيات القرآنية إلى مظانها من القرآن، وبعض التعليق المطلوب. ثم جعلتُ الهوامش التي للمصنِّف كما في المطبوع، وعقبتُ بالرمز لها بـ(حبيب) إشارة إلى أنها للمصنِّف وليست لي.

وأسألُ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يَمَنَّ عليَّ بالتوفيق في إنجاز هذا العمل، وإيصاله إلى القارئ بما هو أمانة يريدها المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، وأسألُ اللهُ عزَّ وجلَّ القبولَ عنده والرضا، إنه سميعٌ مجيبٌ.

كُتِبَتْ عِزُّ الدِّينِ  
هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْبِدْرَانِيُّ الْمُوصِلِيُّ  
المُوصِلُ - ١٧/ جمادى الآخرة/ ١٤٢٤هـ  
١٥ / آب / ٢٠٠٣م

<sup>١</sup> الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص ١٦٤، ١٥٩. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: مج ٣ ج ٤ ص ٤٢-٤٤.

## مقدمة المصنف

حَمْدًا لِمَنْ أَدْعَى الْأَكْوَانَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَرَّمَ بَنِي آدَمَ فِي فَطْرَتِهِ، ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْهُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ، وَأَنْزَلَ الشَّرَائِعَ وَنَصَبَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْعُرْضِ، فَإِنْ أُعْطِيَ فَبِفَضْلِهِ، وَإِنْ مَنَعَ فَبِعَدْلِهِ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ؛ ثُمَّ صَلَاةٌ وَسَلَامٌ عَلَى صَفْوَةِ رَسَلِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا (مُحَمَّدٍ) الْمَبْعُوثِ بِالْحِجَّةِ الْبَيْضَاءِ، الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ، حَتَّى تَبْلُجَ بِهِ صُبْحُ الْهُدَايَةِ<sup>(١)</sup>، وَانْجَلِي لَيْلُ الْغَوَايَةِ، وَقَامَتْ بِهِ الْحِجَّةُ، وَاتَّضَحَتِ الْحِجَّةُ، وَسَحَّتْ<sup>(٢)</sup> سَحَابُ فَيْضِهِ الْعَمِيمِ، وَهَدَى اللَّهُ بِهِ النَّاسَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ، وَصَحْبِهِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ اسْتَرَشَدُوا بِرُشْدِهِ، وَخَلَفُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، هَادِينَ مَهْدِيَيْنِ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ رِسَالَةٌ دَعَانِي لَهَا دَاعِي الْحَقِّ وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ لِسَانُ الْحَقِيقَةِ، ثُمَّ اضْطَرَّنِي إِلَى تَسْطِيرِهَا الْوَاجِبُ؛ وَمَنْ كَانَ الْحَقُّ شَاهِدَهُ؛ وَالْحَقِيقَةُ رَائِدَهُ؛ وَالوَاجِبُ قَائِدَهُ؛ فَحَرِيٌّ أَنْ تُسْمَعَ صِيحَتُهُ وَتُلَبَّى دَعْوَتُهُ.

بَلْ أَقُولُ: إِنَّهَا دَعْوَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ وَصِيحَةُ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ؛ وَالْفَقْهُ وَحُزْبِهِ وَعُلَمَاءُ الْمَلَّةِ وَسَادَاتُهَا وَأَمْرَاءُ الْأُمَّةِ وَقَادَتُهَا، ثُمَّ صَوْتُ الْوَجُوبِ وَهُوَ خَاصٌّ لَا يَحْتَمِلُ الْبَيَانَ؛ وَنِدَاءُ الْمَصْلُحَةِ وَهِيَ بَارِزَةٌ لِلْعَيَانِ.

فَاللَّهُ أَسْأَلُ وَبَنِيهِ أَتَوَسَّلُ<sup>(٣)</sup> أَنْ يَبْلُغَ الصَّوْتُ حَيْثُ يَفُكُّ عَنْ عَقُولِ عِقَالِهَا وَيَفْتَحُ مِنْ قُلُوبِ أَقْفَالِهَا وَيَكْشِفُ عَنْ أَبْصَارِ غِشَاوَةٍ وَعَنْ أَفْتَدَةِ قَسْوَةٍ وَغِبَاوَةٍ، ثُمَّ لَا يَدْعُ فِي الْآذَانِ وَقَرَأَ ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>..

<sup>١</sup> تَبْلُجُ الصُّبْحُ: أَسْفَرَ وَأَضَاءَ. وَأَبْلَجَ الْحَقُّ: ظَهَرَ، وَيُقَالُ: هَذَا أَمْرٌ أَبْلَجُ أَي وَاضِحٌ. يُقَالُ: الْحَقُّ أَبْلَجُ، وَالْبَاطِلُ لَجْلَجٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَضَحَ فَقَدْ أَبْلَجَ. لِسَانُ الْعَرَبِ: (بَلَج) ج ١ ص ٤٧٨.

يريد اتضح الطريق الموصل إلى توحيد الله يادراك الصلة به سبحانه عن طريق اتباع الرسول مُحَمَّد ﷺ والتأسي به.

<sup>٢</sup> سَحَّ الْمَاءُ سَحًّا: مَرَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

<sup>٣</sup> الْوَسِيلَةُ: الْمُنْتَزَعَةُ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَالِدْرَجَةُ وَالْقُرْبَةُ. وَوَسَّلَ فَلَانٌ إِلَى فَلَانٍ وَسِيلَةً إِذَا عَمِلَ عَمَلًا يَقْرُبُ بِهِ إِلَيْهِ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِوَسِيلَةٍ: إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِعَمَلٍ، أَوْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِحُرْمَةٍ أَحْرَمَتْهُ عَلَيْهِ. وَالْوَسِيلَةُ: الْوَصْلَةُ وَالْقُرْبَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء/ ٥٧]. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَدْعُو الْعُقُولَ لَتَفْهَمَ هَدْيَ الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ بِقَصْدِ الْإِتِّبَاعِ وَالتَّأْسِي بِهِ قُرْبَةً

لِللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَطَرِيقَ التَّوَسُّلِ بِالنَّبِيِّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: اتَّخَذَ مِنْهُجَهُ وَشَرِيعَتَهُ طَرِيقًا لِإِدْرَاكِ الصَّلَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِسَانُ الْعَرَبِ: (وَسَل) ج ١٥ ص ٣٠١.

<sup>٤</sup> الذاريات/ ٥٥.

وقد سميتها (حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام) ليوافق الاسم مُسمَّاهُ ويطابق اللفظ معناه، وفيها الكفاءة إن شاء الله لتوحيد كلمة الموحدين ولمَّ شعَثِ المسلمين إذا ما أرادوا أن يعتصموا بحبل الله، وربَّتها على مقدمة وثلاثة فصولٍ وخاتمةٍ، والمقدمة تدور على قطبين:

- القطبُ الأولُ: في سبب تأليف هذه الرسالة وبيان حال المسلمين إجمالاً.  
القطبُ الثاني: في الاتحاد الإسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال<sup>(١)</sup>.  
الفصلُ الأولُ: في منشأ الخلافة الإسلامية، ويشتمل على أربع تمهيداتٍ ومقصودٍ:  
التمهيدُ الأولُ: في أن أنبياءَ الله خُلُفَاؤُهُ في الأرض.  
التمهيدُ الثاني: في إثبات نبوة نبينا مُحَمَّدٍ ﷺ .  
التمهيدُ الثالث: في تحقيق معنى النسخ وأن شريعته ﷺ ناسخةٌ لِمَا تقدَّمها من الشرائع.  
التمهيدُ الرابع: في أنه ﷺ خاتم الأنبياء وأن في شريعته الكفاءة لذلك.  
المقصود: في أن الخلافة الإسلامية خَلْفُ النبوة بل النبوات وأنها واجبةٌ قبل كلِّ واجبٍ دينيٍّ.  
الفصلُ الثاني: في أن الخلافة الإسلامية قائمةٌ بالدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.  
الفصلُ الثالث: في أن دولة الخلافة الإسلامية إذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الإمكان قيام أخرى مكانها.  
الخاتمة: في أن الإنكليز أشدُّ الأُممِ عداوةً للإسلام والمسلمين.

ولمَّا كملَ بدرُها وانتظمَ درُها، وأعيدَ سبُكُها، وجرت ثانية فلكُها، فبرزت كالورقَاءِ من وَكْرِها<sup>(٣)</sup>، والعذراءِ من خُدْرها، التمسَّت لها خير سماء تكون مظهرَ أبدارها، ومطلعَ أنوارها، ثم أبهى جِيدَ تَزْدهي عليه فرائدُها، وتعمُّ به فوائدُها، فزَفَفَتْها إلى كُفُوِ كَرِيمٍ، وبطل عظيم، جدير أن يكون أبا عُذْرَتِها وربَّ جِدَّتِها<sup>(٤)</sup>، بل واسطةَ عقدها وحاملَ لواءِ حمدِها. كيف لا وهو من عُرفَ بقوة الشكيمة، ومُضَاءِ العزيمة، وعلوِّ الهمة، والمفاداة في سبيل الأمة، توحيداً لكلمتها، وتأيداً لجامعتها، وتثبيتاً لسلامتها، وتشبيهاً لعرشِ خلافتها، لمَّا لشعث المسلمين، وتعزيراً لأمر الملة والدين، قد حصر في ذلك آماله، وقصر عليه أعماله، حتى أنه يتشوق إلى المنية، في سبيل تلك الأُمْنِيَّةِ، وإني لأشهدُ، يوم أنشد: أني سمعت من فيه بركَ الله للأمة فيه - في عرض حديثِ بيننا - أنه لا يجبُ أن يعمر كثيراً، وإنما له غايةٌ واحدة في الحياة الدنيا يسعى إليها، ثم يرحبُ بالموت - لا فجعَ الله الأمة به - يوم يحصل عليها؛ ألا وهي: أن يرى الموحدين متَّحدين، وبحبل الله جميعاً معتصمين، قد جمعتهم كلمة الدين؛ فإذا كلاهما - الدينُ وبنوهُ - في شأنٍ رفيعٍ وعزٍّ منيعٍ. ولقد كانَ والله لسانُ حاله أنطقَ من لسانِ مقالِه، إذ بدت خطوط التأثر على قسَمات وجهه الكريم فكأَنَّها سطور خُطَّتْ بمدادٍ من نور، وكلمات يقين في صحيفة مؤمنٍ أُوتِي كتابه باليمين.

<sup>١</sup> يستعمل المصنّف رَحِمَهُ اللهُ (راية الهلال) تعبيراً عن راية الدولة الإسلامية حينذاك، حيث يرسم عليها الهلال وسطه نجمة، وليس المراد غير ذلك فانتبه.

<sup>٢</sup> هذا في زمان المصنّف رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وكان نشرُ الكتاب سنة ١٣٣٤ من الهجرة - ١٩١٦ ميلادية. وألغى الإنكليزُ الخلافة بواسطة عملائهم سنة (١٩٢٤ ميلادية) وانفردت عقْدُ جماعة المسلمين بانتقاض عُرْوَةِ الحكم. وسيأتي البيان إن شاء الله.

<sup>٣</sup> يقال للحمامة والذئبة ورقاء: والمراد الحمامة. والوكرُ: عش الطائر الذي يضع بيضه فيه حينما كان في جبلٍ أو شجر. لسان العرب (ورق) ج ١٥ ص ٢٧٦ و(وكر) ص ٣٨٣.

<sup>٤</sup> يضربُ هذا مثلاً للأمر إذا بانَ وصرُح. يريد به التناهي وأنه قد بلغ الغاية فيما يصفه به من الخلال. يقال: جدَّ فلانٌ في أمره؛ إذا كان ذا حقيقة وقضاء. لسان العرب (جد) ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤.

منذ تلك الساعة قبرت اليأس وأهلت عليه بالتراب، وصافحت الأمل ودخلت جنة نعيمه من كل باب؛ قلت: إن أمة يكون بين أولياء أمورها مَنْ يحمل بين جوانحه مثل هذه الإحساسات المقدسة والعواطف الفاضلة والمدارك السامية إنها لجديرة بالحياة؛ فأهلاً بالأمل يمشي إلى جانبه النور، ولا مرحباً باليأس يتدفق من خلاله الظلام.

لكأني بك وقد شاققتك الذات على ذكرى الصفات وإن لم نُحِطْ بهنَّ بياناً (وَالأُذُنُ تَعَشِقُ قَبْلَ العَيْنِ أحياناً) فنقول:

إنه بطل الإتحاد الإسلامي، وحامل لوائه وواسطة عقده التنظيم وكوكب رشده اللامع في سماءه، ومن عَبَقَتْ بنشر محامده المحافل والمجامع، وعشقت صور مآثره ومفاخره العيون والمسامع، دولة الوزير الخطير، والمجاهد الكبير (أحمد جمال باشا)<sup>(١)</sup> ناظر البحرية والقائد العام للفيلق الرابع، متع الله الأمة بطول بقائه، ومتمعه بدوام اللطف به والرحمة له والأخذ بيده في سره وإخفائه، ولا زالت باسمه رغبته، منصوره كتابته، باهرة فعائله، زاهرة فضائله، ساطعاً كوكب إقباله، مبتسماً تغر آماله، في ظل الخلافة العظمى وتحت راية الهلال، ما اسودت به أيام عدوه البيض وبيضت به للأمة سود الليالي.

زفت إلى دولته هذه الرسالة ليكون واسطة إهدائها إلى العالم الإسلامي رفعاً لقدرها، وتتميماً لأمرها، خدمة لإخواني المسلمين عامة، ولدولته خاصة، اعترافاً لعظماء الأمة بمآثرها، وتنسيباً بين الأمور ونظائرها. وما أجري إلا على الله، به اعتصم، عليه أتوكل، إليه أنيب<sup>(٢)</sup>.

<sup>١</sup> أحمد جمال باشا: ولد عام ١٢٩٠ من الهجرة في استانبول، وهو ضابط في الجيش العثماني، وواحد من الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية؛ خلال الحرب العالمية الأولى، انضم إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابط ركن. أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة ١٣٢٧ هـ ثم حاكماً إدارياً قوياً لإحدى الولايات، ثم تقلد منصب قائد قوى الأمن في استانبول ثم وزارة الأشغال العامة، وحينما نشبت الحرب العالمية، كان جمال أحد المشاهير من الرجال ذوي النفوذ، إضافة إلى طلعت وأنور، وبعد المحاولة الفاشلة لمهاجمة مصر خلال الحرب عين حاكماً لسورية، فسحق الأقلية الأرمنية وقام بإعدامات عامي ١٩١٥-١٩١٦م، ثم خدم الدولة بعد الحرب حتى اغتيل من قبل الأرمن وهو راجع من باريس ممثلاً للأفغان، وقد اغتاله الأرمن أثناء مروره بمدينة تفليس بجمهورية (جورجيا). ينظر: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة العثمانية: هامش ص ٢٧٦-٢٧٧.

وعلى ما يبدو أن الشيخ محمد حبيب كان يحسن الظن به، وله عذره حينها إذ لم تكشف حقائق المؤامرة.

<sup>٢</sup> قطعاً أن الشيخ الفاضل الفقيه العالم محمد حبيب العبيدي كان ميسور الحال غنياً متعقفاً؛ لم يكن يطلب المال؛ بل كان له من الأراضي الزراعية والأملاك الكثير، وقد أوقف منها الكثير لقضية فلسطين. فهو يقدم بهذه المقدمة بقصد النصيحة وإظهار الحقيقة، ليس غير.

# المقدمة

وهي تدور على قطبين؛

القطب الأول

(في سبب تأليف هذه الرسالة وبيان حال المسلمين إجمالاً)

الحياة أدياراً وأطواراً، ومظهر كليهما الهيئات الاجتماعية من الأمم والشعوب، وفي خلال ذلك يجري حكمه (قانون التكامل) الذي يقضي بالانتقال من حال إلى أحسن لمن قدر الأدوار قدرها وسار مع تطورات الحياة على نهج مستقيم، ثم ليس بين دفئ التاريخ قرن بلغ من فرط الرقي في معارج الحياة ما بلغه القرن الرابع عشر للهجرة كما هو معلوم حتى لدى الجاهلين؛ فامة أغفلت حظها من ذلك القانون -قانون التكامل- في مثل هذا القرن - قرن الرقي الباهر- إنها لمنكودة الطالع وإنها لجديرة أن لا تعد في الأحياء.

سنة الله في خلقه أن يدفع بعضهم بعضاً، رفعاً لمنار الحق وتهدياً لحواشي البشرية، تذكيراً للمقصرين من أبنائها وتخفيفاً من غلواء المعتدين. وهذا أكبر مضمار لتطور الأمم والشعوب، فمنهم السابق، ومنهم اللاحق، ثم ثالث يذهب ضحية تحت أقدامهما، ألا وهو العاجز الضعيف.

تلك حقيقة تتجلى في كل سطر من تاريخ حياة الأمم، لا يكاد ينكرها من له أدنى مسكة<sup>(١)</sup>. وما على من أراد تحقيقها عياناً إلا أن ينظر إلى المسلمين وما صاروا إليه في القرون الأخيرة، يقلب في ذلك طرف الناقد البصير.

ثلاثمائة وخمسون مليوناً متدهورون في قعر مهواة مظلم، نهى المطامع وضحايا الأهواء، قصروا في المضمار وسبقت الأمم، فكانت العقبي أن وطئت سناكب الذين سبقوا أعناق المقصرين.

أنكد الأمم حظاً أمة لا تحط أقدارها بيدها، وأولئك هم المسلمون، تقاسمتهم الأمم واستبعدتهم الشعوب ثم تحكمت فيهم الأهواء، فما كان من الأمر إلا أن سعد قوي بشقاء الضعيف.

هذه بلادهم قضى عليها الاستعمار شيئاً فشيئاً، وما مثل المستعمرات إلا مثل السوائم، مسخرات ليس لها من الأمر شيء، وإنما هي ألعوبة الراعي ومغارة أوطاره، خيرها له وشرها لنفسها وإن هذا لبلاء عظيم.

عدد كبير وعيش حقير، ترى الحكومة الهولندية تحكم ثلاثين مليوناً من المسلمين وهي لا يتجاوز عددها ستة ملايين. ترى دولة بريطانيا تستبعد مائة وعشرين مليوناً منهم، والأمة الإنكليزية لا يتجاوز عددها الأربعين، ثم في روسيا ثلاثون مليون مسلم يعانون الأحوال من

<sup>١</sup> رجل ذو مسكة ومُسك: أي رأي وعقل يرجع إليه، وهو من تماسك الشيء أي ليس فيه ارتخاء ويكون معتدل الخلق، يقال: فلان لا مسكة له؛ أي لا عقل له. ويقال: ما بفلان مسكة؛ أي ما به قوة ولا عقل. ويقال: فيه مسكة من خير؛ بالضم أي بقبته. لسان العرب (مسك): ج ١٣ ص ١٠٨.

دُبُّ الشمال، وفي فرنسا ما يقرب من أولئك يتجرعون كأس الذلِّ أمام كِبَرِ الطاووس، وكذلك البقيةُ الباقية في مشارق الأرض ومغاربها، في كلِّ فحٍّ سربٌ من ذاك القطا ضلَّ سبيلَ هداة.

عقدٌ منفردٌ ولؤلؤٌ منثورٌ، فيا حبيبةَ الأملِ إذا لم ينظمهُ سلكٌ، ثم يا طول الحسرة إذا ظلَّ الشملُ رهن الشتات.

على أن فاجعتهم لم تكُ مقصورةً على تحبُّطهم في أغلال الأسرِ، بل وراء ذلك ويلاتٌ وهنَّاتٌ فما شئتَ فقل، من حقوق مغصوبةٍ، وحريةٍ مسلوقةٍ، وجانبٍ مذالٍ، وكرامةٍ لم تحفظُ، حتى إنَّهم يرهقون في دينهم إرهاقاً مما لا يصبرُ عليه إلا ثالثُ (الأذلين)<sup>(١)</sup> وليس هذا محل تفصيله.

ثم الطامة الكبرى إنَّهم في مثل هذا الدور من تطور الأمم -دور التناهي في الرقي والتباهي بشرف الاستقلال ثم انتباه الأفكار لذلك- تراهم من التقهقر في مثل هذه الهوة السحيقة الأعماق، ثم الأعجبُ من ذلك أنَّهم راضون بالموت وفيهم أسباب الحياة، إنَّها لديهم وافرةٌ ولكنهم بها غير عالمين.

إن في هذه الرسالة كفاية أولئك الرُقَّاد، وهذا الرجاء نفسه كان الباعث لتنميق سطورها.

فإن وجدت آذاناً واعيةً وقلوباً صاغيةً فحبذا الأمل، ويا قرّة العين وبشرى المستهل؛ وإلاّ فما على من لم يوقظه دويُّ المدافع وصلصلة الحديد وزفيرُ النيران أن لا يستفزّه صريرُ الأقلام منعكساً على صفحات الطروس؛ فليمتزج هذا بذاك وصدُرُ الفضاءِ أوسعُ من أن يضيّقَ عن حفظ كليهما حتى يأتي أمرُ الله.

على أن في العالم الإسلامي اليوم هزةٌ انتباهٍ ويقظةٌ مستبصرٍ ونشاطٌ متحفزٌ مما يؤذُنُ إن شاء الله بكسر القيود وتحطيم الأغلال وعودِ ذاك المجد المؤتّل والشرف القديم، وإن أمامنا -معاشرَ المسلمين- مستقبلاً وضيئاً قد بدتْ بحمد الله طلائعُ بشره، وما علينا إلا أن نثبَّ لمصافحته ولا ندعَ الفرصة تذهبُ ضياعاً، وإنا إن شاء الله بأكثر مما نُؤمِّلُ لظافرون.

فلا تيأسِي أيتها السطورُ الكريمةُ! إنك ودِعةٌ في ذمّةِ الأيام، ورُبَّ قولٍ أنفذُ من صَوْلٍ.

<sup>١</sup> يشيرُ إلى قولِ الشاعِرِ الجاهلي:

وَلَا يُقِيمُ عَلَيَّ ضَمِيمٌ يُرَادُ بِهِ      إِلَّا الْأَذْلَانَ عَمِيرَ الْحَمِيِّ وَالْوَتْدُ  
هَذَا عَلَيَّ الْحَسْفُ مَرْبُوطٌ بِرَمْتِهِ      وَذَا يُشْنَجُ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدٌ

(حبيب)

## فِي الْإِتِّحَادِ الْإِسْلَامِيِّ

# فِي ظِلِّ الْخِلَافَةِ وَتَحْتَ رَايَةِ الْهَلَالِ

لكلِّ داءٍ دواءٌ وإِنَّمَا مناطُ النجاحِ حِذَاقَةُ الْأَسَاةِ فِي تَشْخِصِهَا، الْأَمْرَاضُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ كَالْأَعْرَاضُ الْجِثْمَانِيَّةُ وَإِنَّمَا أَسَاطِهَا أَهْلُ الْغَيْرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ وَمَفْكَرُهَا. الْمُسْلِمُونَ مَرْضَى مِنْذُ قُرُونٍ وَفِيهِمْ مِنَ الْعِلَلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مَا يَنْوَأُ بِالْإِحْصَاءِ، وَلَكِنْ الْمَنْبَعُ وَاحِدٌ وَالْبَقِيَّةُ فُرُوعٌ. إِنَّ دَاءَ الْمُسْلِمِ كَوْنَهُ مُسْلِمًا كَمَا أَرَادَ، وَدَوَاءُهُ أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا كَمَا يَرِيدُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

لَا حَيَاةَ لِأَهْلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ، وَالمَوْتُ كُلُّ المَوْتِ فِي شَتَائِهَا، فَاتُّلُ إِنَّ شِئْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> ثُمَّ أَذَكَرَ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ: «الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ»<sup>(٣)</sup>.

إِنَّ الدَّوَاءَ الْوَحِيدَ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَنْ يُمَثِّلَ أُمَّةً شَعَارُهَا التَّوْحِيدُ وَدَثَارُهَا الْإِتِّحَادُ، وَذَلِكَ مَا يَرِيدُ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ فِي رَيْبٍ مِنْ هَذَا فَاتُّلُ قَوْلَهُ عَزَّتْ كَلِمَتُهُ: ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾<sup>(٤)</sup> ثُمَّ تَدَبَّرْ مَا حَوَاهُ مِنَ الْمُؤَكَّدَاتِ.

إِنَّ مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ فِي وَجُوبِ اتِّحَادِ الْأُمَّةِ وَتَعَاوُنِ أَفْرَادِهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى، وَبِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ تَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مِنْ إِظْهَارِ الْخَوَارِقِ الَّتِي أَدْهَشَتْ الْعَالَمَ أَجْمَعَ يَوْمَ قَلَبُوا الْكُونَ رَأْسًا عَلَى عَقْبِ وَنَزَعُوا بِالْأُمَّمِ إِلَى طُورٍ مِنَ الْحَيَاةِ جَدِيدٍ.

إِنْ مَا تَضَمَّنَتْهُ تِلْكَ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ مِنْ أَسْرَارِ السِّيَاسَةِ وَدَقَائِقِ الْاجْتِمَاعِ قَدْ اثْبَتَتْهُ التَّجَارِبُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ، وَلَا أَثَرَ بَعْدَ عَيْنٍ، فَهَذِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَهَا عَلَى ذَلِكَ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهَا فِي الطُّورَيْنِ مِنْ حَيَاتِهَا، إِذْ أَحْيَاها الْإِتِّحَادُ فِي مَبْتَدَاها وَإِذْ أَمَاتَها الشَّتَاتُ فِي مَبْتَدَاها، وَلَنْ تَحْيَا حَتَّى تَعُودَ عَلَى مَا بَدَأَتْ بِهِ، وَهُوَ السَّرُّ الْمَرْمُوزُ فِي قَوْلِ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ

<sup>١</sup> أَرَادَ بِالْأَوَّلِ: الَّذِي أَخَذَتْهُ الْغَفْلَةُ وَحَكَّمَ عَقْلَهُ فِي إِسْلَامِهِ فَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبُهُ، وَأَرَادَ بِالثَّانِي الَّذِي اسْتَقَامَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ بِالْإِعْتِصَامِ بِهَدْيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ وَيَخَافُ عَذَابَهُ تَائِبًا مَنِيئًا إِلَى اللَّهِ.

<sup>٢</sup> الْأَنْفَالُ/ ٤٦.

<sup>٣</sup> عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَذِهِ الْأَعْوَادِ أَوْ عَلَى هَذَا الْمَيْتَرِ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ. وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ». قَالَ: فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ: عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ! قَالَ رَجُلٌ: وَمَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ فَقَادَى أَبُو أُمَامَةَ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ التَّوْرَةِ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ: ج ٣ ص ٢٧٨ وَص ٣٧٥، وَفِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ وَمَنْعِ الْفَوَائِدِ: كِتَابُ الْخِلَافَةِ: بَابُ لُزُومِ الْجَمَاعَةِ وَطَاعَةِ الْأُمَّةِ وَالنَّهْيِ عَنْ قِتَالِهَا: ج ٥ ص ٢١٧-٢١٨؛ قَالَ: رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ وَابْنُ الْبَرَكِيِّ وَالطَّرِيفِيُّ وَرَجَاهُمْ ثِقَاتٌ. إِنْتَهَى. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

<sup>٤</sup> آلِ عِمْرَانَ/ ١٠٣.

به أولها).

مضت قرون، ونور هذه الحقيقة مطموسٌ عليه بظلمات الجهل من الأمة وهي تكابد بسبب ذلك ما تكابد من جور الليالي وعذاب الأيام، حتى قيض الله لها من عرف الداء واهتدى إلى الدواء فقدّر الحقيقة قدرها وأخذ يسعى لتحقيق آثارها وأولئك هم المفكرون<sup>(١)</sup>.

إن الشمل الممزق من العالم الإسلامي لا يمكن جمعه إلا بطريقة واحدة وهي التي شرعها الله في ديننا لمثل هذه الغاية التي يتوقف على تحقيقها بقية الغايات، وما هي إلا الخلافة الإسلامية.

ولكن ذلك متوقفٌ على معرفة المسلمين كافةً مكان الخلافة من الدين، وأنها فيه بمثابة القلب الذي لا تتم الحياة للحسد بدونه. وهذه الرسالة كافلةٌ بأداء هذا الواجب.

إن اليوم الذي يعلم المسلم بوجوب اتحاده مع أخيه المسلم مهما بُعدت بينهما الشقة، وبوجوب التضحية في سبيل رابطة ذاك الاتحاد أعني الخلافة الإسلامية، ثم يعمل بمقتضى علمه أنه لليوم الذي يُثبت فيه المسلم أنه قد قام بأول واجب ديني وإنه لليوم الذي تُحفظ فيه بيضة الإسلام، ويعزُّ المسلمون. والذي يملأ القلب جذلاً وابتهاجاً أتنا- معاشر المسلمين- قد صافحنا فجر ذاك اليوم السعيد، وما بعد انفلاق الفجر إلا تبلج الأضواء وتمزيق حجب الظلماء ثم جريان الشمس في كبد السماء، فأهلاً بالنور، وحبذا الأمل يسطع ضوءه من أفق الحبور.

إن فكرة الإتحاد الإسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال أمرٌ واقع؛ لأنها جزءٌ من الدين-يرشدك إلى ذلك أصوات الخطباء على منابر التبليغ في مشارق الأرض ومغاربها أيام الجمعة وفي الأعياد- فمن شك في المسلمين إنهم موحدون جاز له الشك في إنهم متحدون، فحننٌ لا ندعوهم إلى الاتحاد لأنه من قبيل تحصيل الحاصل، وإنما ندعوهم إلى الالتفات إلى ذلك، والفرق بين الأمرين كالفرق بين ما قصد أولاً وبالذات، وما قصد ثانياً وبالعرض. مثال ذلك: أنك تقف أمام المرأة وينطبع رسمك فيها، لكنك غافلٌ عن ذلك، فلا ترى نفسك ولا تعرف ما عسى أن يكون قد طرأ على زيِّك من زيادة أو نقصان، ولو لاحظت المرأة قصداً لتمت الغاية المطلوبة من الوقوف أمامها.

فحننٌ لا نريد من الدعوة إلى الإتحاد الإسلامي إلا ملاحظته قصداً لنحصل منه على الفائدة التي فقدناها بسبب الغفلة وسوء التدبير. ومثل هذا لا يحتاج إلى كبير عناء: إن الله قد مهّد لنا هذا الوطاء في الدين وإنها لسنة لا يعوزها إلا الانتباه.

وأما الفائدة التي نتطلبها من الإتحاد الإسلامي فإنها لا تخص المسلمين فقط بل تعم طبقات البشر كافة، فالعمل على تلك الفكرة خدمة للإنسانية وأبنائها، لا خطر عليهما كما يزعم بعض أرباب الغايات الفاسدة حتى ربّما موّهوا على بعض البسطاء أن فيه خطراً حتى علينا

<sup>١</sup> هم رجال حزب الاتحاد والترقي: من الأحزاب السياسية العثمانية ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى رسالة (صدى الحقيقة) تعريب الخطب التي ألقيتها في العاصمة إذ كنت مندوباً في البعثة العلمية. (حبيب).

قلت: يتكلم الشيخ العبيدي رحمه الله وهو يحسن الظن بحزب الاتحاد والترقي والثقة بمفكره على حدّ تعبيره. حيث أنه يستمد الثقة من إذن الإمام أمير المؤمنين المتمثل بالخليفة العثماني: وحيث كانت شعاراتهم في ظاهرها إصلاحية.. وإلا فالشيخ صريحٌ بهويته السياسية وعقيدته الإسلامية بوحدة بلاد المسلمين تحت راية الخلافة وتطبيق شرع الإسلام دين الله الحق. هكذا بدا لي الحال والله أعلم.

ألاً ليثقنَّ صرعى الطيش وسكارى الغرور، ثم ليعلمنَّ شهداء الجهل وأسارى التقليد أنَّ الإنسانية لن تستريح ما دام المسلمون في نكدٍ من العيش. ندعى هذا من حيث يوافقنا عليه كلُّ مُفكِّرٍ مُنصفٍ ثم نثبتهُ من وجوه فنقول:

أولاً: إنَّ المدنيَّةَ الحاضرةَ قد وسَّعت نطاق الارتباط بين الأمم والشعوب حتى أصبحوا وأصبحت الكرةُ أشبه بعائلة كبيرة تسكنُ داراً واحدة، ومما لا مرية فيه أنَّ حُسْنَ انتظام العائلة إنَّما يتمُّ بتوزيع الأعمال بين أفرادها، والمسلمون قسمٌ كبير من هذه الأفراد، فبقاؤهم معطلين عن العمل بسبب تفهقرهم وانحطاطهم نقصٌ فيما يجب لتلك العائلة الكبيرة من حُسْن الانتظام، إن حرمان البشرية من عمل ثلاثمائة وخمسين مليوناً من صميم أبنائها جناية على البشرية كبرى.

ثانياً: إنَّ فرطَ الارتباط بين الأمم والشعوب قد جعلهم بمثابة الأعضاء تمثل جسماً واحداً، والأمة الإسلامية عضو في هذا الجسم كبير، فإبقاؤه عليلًا يشكو الآلام والأسقام مما يشوشُ على المجموع لذَّة الحياة بصورة طبيعية وفقاً لما يقتضيه (عِلْمٌ وَظَأْفِ الأَعْضَاءِ).

ثالثاً: إنَّ طمعَ القويِّ بالضعيف رجاءٌ أنَّ يسعدَ بشقائه غريزة في البشر، فما دُمننا معاشرَ المسلمين ضعافاً فإنما نحنُ فتنَةٌ يشقى الطامعُ فينا ولا يدعنا نسعدُ، ثم من بين هذا وذاك يعلو أنين الإنسانية في شكواها، فالعمل على إضعافنا مدعاةٌ لاضطراب الإنسانية وتشويشٌ لمسراها. إن ابتلاع ثلاثمائة وخمسين مليوناً ليس بالأمر اليسير.

رابعاً: إنَّ سياسةَ العصرِ قائمةٌ على حفظ التوازن، فما دام العالم الإسلامي متزلزل الأركان فلن يستقيم للسياسة قسطاس. ومَنْ دَقَّقَ تاريخَ الحروب بنظر نافذ رأى أكثرها قد استعرت ناره من مثل هذا الشرر، حتى أنَّ هذه الحربَ العامة لو كان للمسلمين منعةٌ وكان وزنهم في كفة السياسة راجحاً لما انفجرَ بركائها واستعرت نيرانها حتى تألَّم لويلاتها قلب الإنسانية ونجَمَ عنها من الخسائر ما لا يمكن تلافيه بأقل من مائتي عام.

خامساً: إنَّ الانفجارَ نتيجةَ التضييق، وللمسلمين عدد لا يستهانُ به، والليالي حُبالي يلدن كلَّ عجيب، فكيف يؤمُّن الخطرُ على المجتمع الإنساني إذا اضطرت المسلمين العواملُ فأعادَ التاريخُ نفسه وضربَ الزمانُ أمةً بأخرى فإذا أنحاءُ السيطرةِ كرةٌ من نارٍ، وإذا للكون خريطة أخرى رسمت بالأحمر القاني من دموع الإنسانية بدلاً من المداد.

من زعم أن في الإمكان محو العالم الإسلامي من الوجود دون أن تُمحي خريطة الوجود - ما دام للمسلمين دين مرتكز على السياسة<sup>1</sup> - وخلافة مرتكزة على قواعد الدين - فقد ظنَّ غلطاً وركبَ شططاً.

إنَّ الاتحاد الإسلامي يدرأ في نحر هاتيك المخاطر ويحفظ الإنسانية من مثل هذه الويلات ثم يزيد المدنية الأوروبية رونقاً وبهاءً كما كان منبتق أنوارها في عصور الظلم والظلمات مما لا ينكرهُ من له أدنى إلمام بتاريخ مدنيت الأمم في القرون الخالية.

<sup>1</sup> سيتضح لك هذا من المباحث التي ستمرُّ بك تبعاً. (حبيب).

فيا سبحانَ الله! أنحفظُ الإنسانِيَّةَ بالأمس ونشيد أركانَ المدينة ثم نكون اليومَ خطراً عليهما؟

ولكن هي الغاياتُ الفاسدة والمقاصد الخبيثة تحمل عديمي المروءة على تشويه الحقائقِ وارتكاب كلِّ فظيعةٍ في مثل ذلك السبيل.

## فِي مَنْشَأِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِ تَمَهِيدَاتٍ؛ وَمَقْصُودُ:

### التَّمَهِيدُ الْأَوَّلُ

## فِي أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ خُلِقُوا فِي الْأَرْضِ

للإنسان أربعة أدوار: دورُ العدم، دورُ الإيجاد، دورُ الإرشاد، دورُ الجزاء - أي دور العقاب والثواب -. وها أنت تجدها على هذا الترتيب متتابعةً متناسقةً في سورة الإنسان من كتاب الله المحجيد.

فأما دورُ العدمِ يوم لم يعطس به أنف الوجود، فذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾<sup>(١)</sup> فالإنسان بالإضافة إلى ذلك الحين<sup>(٢)</sup> لا يجوز عليه الحكم بوجه من الوجوه؛ لأنه عدم؛ ولأن النفس لا تتوجه نحو المجهول المطلق - كما يعرفه المنطقي - أجل مبلغ العلم بالإنسان يومئذٍ أنه كان تراباً، حتى تعلقت إرادة الله بخلقه فكان إنساناً، كما قال جلَّت حكمته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ولكن كونه تراباً غير كونه إنساناً، فهو من هذه الحيشة لم يكن شيئاً مذكوراً.

وأما دورُ الإيجادِ وحفظ بقاء النوع فذلك قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾<sup>(٤)</sup> فأوجده إذ سوَّاه من تراب ونفخ فيه من روحه كما قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾<sup>(٥)</sup> ثم حفظ نوعه إذ خلق له زوجه وجعله نُطفاً تنتقل من الأصلاب إلى الأرحام كما قال عزَّت كلمته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

<sup>١</sup> الإنسان / ١.

<sup>٢</sup> أما تخصيص الإنسان بآدم والحين بأربعين سنة كان فيها مصوراً من طين، أو إبقاء الإنسان على إطلاقه ثم تخصيص الحين بمدَّة الحمل، فكل ذلك مجازٌ لم تتعدَّر معه الحقيقة فدعاه لمرتكيه. (حبيب).

<sup>٣</sup> الروم / ٢٠.

<sup>٤</sup> الإنسان / ٢.

<sup>٥</sup> ص / ٧١-٧٢.

<sup>٦</sup> الروم / ٢١.

وتشير هذه الآية إلى (بقاء الأنسب) إذ بالتناسل يتم بقاء الإنسان ولا مريَّة أن كونه إنساناً أنسب من كونه تراباً وكذلك تشير إلى سرِّ تشكيل العائلات بجعل المودَّة والرحمة بين الزوجين. ومن تدبُّر مغامز هذه الآيات الكريمة من قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْفَرِّقُونَ﴾ [الروم / ١٤]، إلى قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ولكن تكوينه من نطفة أمشاج<sup>(١)</sup> جعله مجمعا للأضداد، فبينما تراه يرفرف في عالم الملكوت يزاحم أبناء النور في سبحات الجلال. إذا به كسير الجناح يتخبط في الحضيض الأسفل يغالب أبناء النار في قبول الرذائل وبث الشرور. وهذه القابلية فيه هي التي كانت مناط الابتلاء وهي التي جعلته قرين الشيطان وعبد الرحمن في آن واحد، فمن غلبت ملكيته على عفريته فقد فاز، ومن تغلبت فيه الثانية على الأولى كان لنفسه من الظالمين.

لكن الإنسان لو تخلى ونفسه لكان إلى الشر أقرب منه إلى الخير<sup>(٢)</sup> والله لا يريد بعباده شرًا<sup>(٣)</sup> فنجم عن هذا وذاك بعثة الرسل صلوات الله عليهم وجعلهم خلائف في الأرض ليكبحوا من جماع الشر الذي لولاهم لما صدر عن الإنسان سواه. ومن هنا أتى الدور الثالث الذي وسّمناه بدور الإرشاد.

وأما دور الإرشاد فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾<sup>(٤)</sup>.

عرفت غرائز البشر في فطرته وأنه محتاج إلى مرشد يقوم من أوديه وهاهنا يدعو إلى سواء السبيل، فما هي الطريقة الموصلة إلى ذلك؟

إن الإنسان الذي لو تخلى ونفسه لغلبت عفريته على ملكيته فكان كله شرًا ليس في وسعه أن يكون بعمومه مظهرًا للخطاب الإلهي، والوحي الملكي، والحكمة تقضي بتجانس ما بين مدعو وداعيه، ومهدي وهاديه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾<sup>(٥)</sup> والله أعلم حيث يجعل رسالته، ويختص برحمته من يشاء، فاختار من بني الإنسان أفذاذًا في وجهتهم الملكية فضل على وجهتهم العفرينية فخصهم بالعصمة وأهلهم لما يريد فكانوا خلفاء في أرضه ورسله الكرام بينه وبين عباده رحمة منه وفضلاً والله ذو الفضل العظيم.

كذلك هدى الله عباده السبيل: فبعث فيهم رسلًا من أنفسهم يتلون عليهم آياته ويعلمونهم الكتاب والحكمة، فصدعوا بما أمروا وبلغوا ما أنزل إليهم من شرائع الله وأحكامه وكانوا خلفاءه في تنفيذها كما صرح بذلك في غير موضع من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٦)</sup> فجعل الحكم بين الناس بالحق من قبل داود عليه السلام مرتباً على جعله خليفة في الأرض ثم قابل ذلك باتباع الهوى وعده ضلالاً عن سبيله. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي

[الروم/ ٢٧] وما حوته من دساتير الشائين وفلسفة حياتهما مع التعرض لجلالة كنه الألوهية بأوجز عبارة وأدق إشارة حرّ أمام عظمة الله ساجداً وأيقن أن هذا القرآن منزل من لدن حكيم خبير. (حبيب).

<sup>١</sup> مفرد مشيخ كائنا ما يتيم، ومعناه الخليط، والنطفة مختلطة من عناصر متضادة بين بارد رطب وبابس حار كالماء والنار، وبين لطيف وكثيف كالشراب والهواء، وهذه الأربعة كذلك مركبات غير بسائط كما عرفت في محله ثم كل منها يريد مفعوله ضرورة، إن الماهيات لا تنفك عن طبائعها. ومن ثمة كان الإنسان ابن التطور قابلاً لأية حالة ترد عليه أو تصدر عنه ومن هنا كان مجمع الأضداد ومن هنا أتى الابتلاء في قوله: ﴿نَبِّئِيهِ﴾ أما أن المراد من ﴿نطفة أمشاج﴾ اختلاط ماء الرجل بماء المرأة فذاك رأي ندعه لقاتليه.

<sup>٢</sup> بدليل أنك ترى العصاة أكثر من الطائعين، وأهل الإيمان أقل من الكافرين، والمؤمنون يوم القيامة كمنقطة بيضاء في شعر جلد ثور أسود كما ورد في الأثر. هذا مع إرسال الرسل وإنزال الكتب ونشر نور الإرشاد وإقامة الحدود بين العباد. فكيف لو تخلى الإنسان ونفسه ملقى زمامه على الغارب؟ (حبيب).

<sup>٣</sup> لا يفهم منه وجوب رعاية الأصلح للعبد على الله كما ذهب إليه المعتزلة. (حبيب).

<sup>٤</sup> الإنسان/ ٣.

<sup>٥</sup> الأنعام/ ٩.

<sup>٦</sup> ص/ ٢٦.

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup>. قال في الجلالين عند قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وقال عند قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم وأن في ذريته المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم.

ومن أمعن النظر فيما قصه الله علينا من المُحاورَة بينه وبين ملائكته في آدم واستخلافه من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> انتبه إلى أسرار كثيرة ومغامز غير يسيرة مما يعرفه عظمة النوع الإنساني، وتقلبه في تصاريف الحياة، ثم علو شأن الاستخلاف فيه من وجوه شتى، ولكننا نكتفي من التنبيه على ذلك بمجرد استلفات الأنظار إليه خشية الأطناب.

وصفوة القول إن أنبياء الله خلفاؤه في أرضه يهدون عبادة السبيل فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، وهكذا كان الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً.

ولكن وجود المحسن والمسيء بعد قيام الحجة واتضح المحجة يقضي بالثواب لمن أحسن والعقاب لمن أساء روم التمييز بينهما قضاء لواجب العدل واستبقاء الحكمة الفصل، إذ لولا الوعد والوعيد لقصّر المحسن ولجّ المسيء فاختلف النظام وضاع المقصود وكان الأمر فرطاً. ومن هنا تكون الدور الرابع: دور العقاب والثواب.

وأما دور العقاب والثواب فهو منصوص عليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا. إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾<sup>(٣)</sup> وذلك بعد قوله عز اسمه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾<sup>(٤)</sup>.

فأية الثواب تخصّ الشاكر، وأية العقاب تخصّ الكافر، ولكن كلا الأمرين راجع إلى الدار الآخرة؛ لأن ما ترتباً عليه عائد لذاته تعالى. وهنا إيضاح لا بد من التنبيه عليه فنقول:

مناطق كل من الثواب والعقاب هي الأعمال التي رسمت لها الشرائع حدوداً في التكليف، وهي بهذا الاعتبار على قسمين: ما كان حقاً لله على عباده، وما كان حقاً لهم أزاء بعضهم بعض، فالأول: عبارة عن العبادات إجمالاً، والثاني: عبارة عن المعاملات كذلك، وكلاهما حدود لله وليس في الشرائع والأديان وراء ذلك وراء. فأما حقوق الله فما يترتب عليها من الثواب والعقاب مؤجل ليوم البعث والحساب، وفيها المعجل في هذه الدار. وأما حقوق العباد بعضهم أزاء بعض فهي قضاء معجل ثم حساب مؤجل، وهي التي تسمى حقوقاً في الدنيا، وتبعات في الآخرة، فيحسمها القضاء هنا، ولا يغفرها الله هناك إلا أن يعرض من عنده كما في الحديث الشريف<sup>(٥)</sup>.

فإذا تمهد هذا وجب أن يكون في الملة من يقوم بتنفيذ تلك الأحكام المعجلة من قسمة العبادات والمعاملات، وإلا تعطل كل هذه وكثير من تلك، وليس الدين إلا عبارة عنهما، فلا يبقى حينئذ من الشرع إلا اسمه ومن الدين إلا رسمه، وتذهب الحكمة من بعثة الرسل

<sup>١</sup> البقرة/ ٣٠.

<sup>٢</sup> البقرة/ ٣٣.

<sup>٣</sup> الإنسان/ ٤-٥.

<sup>٤</sup> الإنسان/ ٣.

<sup>٥</sup> حديث المفلس.

وسنّ الشرائع سُدىً ويفقد الإنسان دورين من أدواره الأربعة، دور الإرشاد ودور الجزاء، فيرجع القهقري إلى دوره الابتدائي - أعني دور الإيجاد - ومن هنا لا يلبث أن يصبح هُملاً يتخبط في دَيَاجِرِ غِيَّهِ<sup>(١)</sup> وقد غلبت عليه غرائزه وتحكّمت فيه أهواؤه؛ فلا تزال شروره

تتفاقم حتى يعودَ كُلُّه شراً يأكلُ بعضه بعضاً وما عُقى مثل هاتيك الشرور إلاّ الفناء، فربّما حقّت عليه الكلمة فإذا هو راجعٌ إلى دوره الأول: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

فمناطُ حفظِ الشرائع والأديان ثم بقاءِ الإنسان إنساناً إنّما هو خلائفُ الله في أرضه؛ وما خلفاؤه فيها غير أنبيائه الذين يأتون بالناموس الأكبر من التعاليم الإلهية، فيضعون الأسمس ويثبون النور ويهدبون من حواشي البشرية ما لو تُركَ أبنائها وإياها لظلُّوا في طغيانهم يعمهون.

---

<sup>١</sup> الدِّيَاجِرُ: جمع دَيْجُورٍ، وهو الظلام؛ والدَيْجُورُ: الظلمة، ووصفوا به فقالوا: لَيْلٌ دَيْجُورٌ وليلةٌ دَيْجُورٌ ودَيْجُورٌ مظلمة. ودَيْمَةٌ دَيْجُورٌ: مظلمةٌ بما تحملهُ من الماء، وفي كلامِ عليّ عليه السلام: تغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار. لسان العرب: (دجر) ج ٤ ص ٢٩٣.

## فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

عرفت مما مرَّ بك في التمهيد الأول أن أنبياء الله خلفاؤه في الأرض فنقول: إنَّ من جملة أنبيائه مُحَمَّدًا ﷺ وهذه الدعوى تثبت من طرقٍ متعدِّدةٍ ووجوهٍ شتى، ولكننا نكتفي من ذلك بأمرين إليهما ينتهي كلُّ برهان: التواترُ والقرآنُ.

أما التَّوَاتُرُ: فما زالت الأجيال تنقلُ عن الأجيال منذُ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن أنه ظهرَ في بطحاءِ مكَّةَ رجلٌ من بني هاشم يدعى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَادَّعى النبوةَ وأنكرَ عليه قومه، ثم ما زالَ مُثابراً على دعواه يعضِّدُها بالآياتِ الباهرة والمعجزاتِ القاهرة حتى ضربَ على أفواه المنكرين لجامِ الإفحامِ والإلزامِ.

رُبِّيَ في قومه يتيماً وكبر فيهم فقيراً وكان أمياً لا يعرف ما العلم وما الكتابة كما وصفه القرآنُ بكل ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ فَأَوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى<sup>(١)</sup> وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(٢)</sup> ولو لم يكن متصفاً بهذه الأوصاف لَمَا أمكنه أن يَجْهَرَ بها في قومه على لسانِ القرآنِ الذي كان يتحدَّاهم به على سبيل الإعجاز.

ولا ينكرُ من له أدنى مسكَّةٍ من تَعَقُّلٍ أنَّ السلاح في معتركِ الحياة لا يكادُ يعدو هذه الثلاث: العلمُ؛ والمالُ؛ والرجالُ. ومن كان أمياً، فقيراً، يتيماً في آنٍ واحدٍ فهو فاقدٌ لها طبعاً؛ فكيف تَسَنَّى لِمُحَمَّدٍ ﷺ وهو أعزُّ من كلها أن يلقي نفسه في أعظم مضمار كافح به العالمُ أجمع من كتابي ووثنيٌّ ودهرِيٌّ معطلٍ، يدعوهم إلى أثقلِ شيءٍ على النفوس، ألا وهو تغييرُ الأديانِ المألوفةِ والمعتقداتِ الراسخةِ والتقاليدِ الموروثةِ والعاداتِ المتَّبعةِ، ثم في مقدمة الجمعِ بارزَ قومه الذين نشأ فيهم يتيماً معدماً يبعُدُ أن يروهُ من بينهم أهلاً لذلك الأمرِ الخطيرِ، وفيهم أولوا المنعةِ والقوةِ والأنفةِ والكبرياءِ كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup> هذا وأشدُّ الناسِ خصاماً له وتألُّباً عليه أقربهم إليه نسباً وأمسُّهم به رَجِماً أولئك عشيرته الأقربون وذوُّ قرابته الأَدْنَوْنَ.

أما هو ﷺ فقد صَبَرَ على كل أذى وأغضى على القذى، لم يُثِنْ من عَنَانِ عَزْمِهِ<sup>(٤)</sup> ثانٍ على تفنُّنِ القومِ في التماسِ وسائلِ الصدِّ له عمَّا كان يريدُ من وعدٍ ووعيدٍ، فلم يؤثر عليه شيءٌ من ذلك، لا أطمعته رغبةٌ ولا استفزَّته رهبةٌ، حتى ولا عهدَ الصحيفة ولا يوم تآمروا على قتله؛ بل كان يلقي كل كارثة تدهمه بثبات جأشٍ ومثانة عزمٍ وحسن صبرٍ، ثم يقول: «لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي

<sup>١</sup> الضحى/ ٦-٨.

<sup>٢</sup> الأعراف/ ١٥٦-١٥٧.

<sup>٣</sup> الزخرف/ ٣١. يريدون الوليد بن المغيرة من مكة وعمرو بن مسعود الثقفي من الطائف. (حبيب).

<sup>٤</sup> عَنَانٌ: جمع العائنة والعنانة: السحاب. فأعنان: النواحي. وفي الحديث: «مَرَّتْ سَحَابَةٌ فَقَالَ ﷺ: هَلْ تَدْرُونَ مَا اسْمُ هَذِهِ؟ قَالُوا: هَذِهِ السَّحَابُ، قَالَ: وَالْمَرْئُزُ قَالُوا: وَالْمَرْئُزُ. قَالَ: وَالْعَنَانُ. قَالُوا: وَالْعَنَانُ». وَقِيلَ: وَالْعَنَانُ الَّذِي تُمَسِّكُ الْمَاءَ. لسان العرب: (عنن): ج ٩ ص ٤٤٠.

شِمَالِي مَا رَجَعْتُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ...»<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان، حتى جاء نصرُ الله والفتحُ وغداً الناس يدخلون في دينِ الله أفواجاً.

فلولا أنه مؤيِّدٌ بنفحةٍ قُدسيَّةٍ وناموسٍ إلهيٍّ لَمَا أمكنه اقتحامُ كلِّ هاتيك العقبات حتى صرع مبارزيه وهو أعزلٌ وخرج ظافراً من مثل ذلك المضمَّارِ.

كانت العربُ عروفاً لا تلتوي فلوأها<sup>(٢)</sup>، وكانت الغياهبُ مدلممةً فكشف دُجأها، كَسَرَ الأصنامَ بالرغم عن خُفرائها، وما خفراؤها إلا أفوياءُ أشداء، وما هي في معتقدهم إلا آلهةٌ.

ذلُّ له أصحابُ التوراة، وارتعدت منه فرائضُ أهلِ الإنجيل، وفيهم نخوةُ السبقِ عليه، والأمرُ لهم مُمهَّدٌ، والقلوبُ عليهم غيرُ منكورةٍ.

فأوضَّ النجاشيُّ، وأنذرَ كِسرى، وتوعَّدَ قيصرَ، وهم دعائمُ الشرقِ وأوتادُ جبروته، ثم استقامَ لمن استقامَ له، وثلَّ عروشاً ودوَّخَ ممالك من آخرين.

نطقَ بالحكمة وجاءَ بالنورِ وأوضحَ مكارمَ الأخلاقِ، ووضعَ شرائعَ، وسنَّ أحكاماً في ديارٍ تُقَطَّرُ جهلاً وتسيلُ ضلالاً وتبرقُ ظلماً وتمطرُ ظلاماً، ثم جمعَ الكلمةَ ولمَّ الشمْلَ وألَّفَ بين جموعٍ متناحرةٍ وقلوبٍ متنافرةٍ وآراءٍ متباينةٍ، فأوجدَ قوَّةً عن ضعفٍ، ومنعةً عن ذلٍّ، وشادَ مُلكاً<sup>(٣)</sup> من غيرِ أنقاضٍ وإنما أقامَ دَعَائِمَهُ على بقايا أمةٍ كانت مبعثرةً الأشلاءِ.

غيرَ خريطةِ الوجودِ وقَلَبَ الكونَ رأساً على عقبٍ، وبَدَّلَ الأرضَ غيرَ الأرضِ، ولا مُعِينَ له إلا الصبرَ، ولا خَدِيْنَ إلا العزمَ<sup>(٤)</sup>. حتى أقرَّ له جاحدوه ونصره معاندوه وعضده أضدادهُ وآزره أعداؤه، فوسَّعَ النطاقَ، ومدَّ في السببِ وضربَ من أدبرَ بمن أقبلَ، ووجهَ الأعنةَ نحو كلِّ صوبٍ، فإذا صَبَّته طائرٌ، وإذا نورهُ منتشرٌ في جميعِ الأنحاءِ.

فَعَلَ كلَّ هذا وهو أُمِّيٌّ، فقيرٌ، يتيمٌ.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ هل فوق ذلك من دليلٍ تثبت به نبوةُ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ أم هل فوق تاريخ حياته هذا من معجزةٍ تنهضُ حجةً لصدقه فيما ادَّعاه على كَرِّ الليالي ومرِّ الأيامِ؟

بل نقولُ: إن مجردَ ثباته على ما عاناهُ في سبيلِ دعواه من فرطِ التحزُّبِ عليه والإيذاء له والإيقاع به معجزةٌ له، إذ لم يستفزَّه وعيدٌ مع فقدِ الناصرِ، ولا وعدٌ مع وجودِ الفاقَةِ، فلولا أنه مؤيِّدٌ بروح من الله لما ثبتَ في موقفٍ يستحيلُ على الإنسان عادةً أن تثبتَ فيه قدماءُه. وإنها لحقيقةٌ جديرةٌ بالتدبير والاستبصار، ثم تصریحُ القرآنِ بها على سبيلِ الخطابِ معه بذلك أجدرُ، فأثُلُ إن شئتَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا

<sup>١</sup> الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص ٧٠. ورواه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٢ ص ١٨٧.

<sup>٢</sup> الفلؤ: المُهَرُّ إذا بلغ سنة. وقيل: هو العظيم من أولاد ذات الحافر، أو العَسْرُ الذي لم يُرَضْ. لسان العرب (فلو) ج ١٠ ص ٣٢٩.

<sup>٣</sup> دولة ذات سيادة وسلطان، دولة يسودها العدلُ ويحكمها الشَّرْعُ في عصرِ النبي ﷺ وعصر بعده بإذنِ الله مُمثلاً بسلطان الأمة أي إرادتها الإسلام عقيدةً وعملاً.

<sup>٤</sup> خَدَنَ: أَخَذَ وَالْخَدِيْنُ: الصديقُ، وفي المُحكَم: الصاحبُ المُحدَثُ؛ والجمعُ أَخْدَانٌ وَخَدَنَاءُ. ومعناه الذي يُخَادِنُكَ فيكون معك في كلِّ أمرٍ ظاهرٍ وباطنٍ. لسان العرب.